البَـابُ الأولُ

عصر الرجل

الفصل الأول : الحياة السياسية فى عصر الصولى.

الفصل الثانى : الحياة الاجتماعية فى عصر الصولى.

الفصل الثالث : الحياة الثقافية والعلمية فى عصر الصولى.

الفصل الرابع : الحياة الأدبية والنقدية فى عصر الصولى.

الفصل الأول

الحياة السياسية

كان الجو السياسى فى عصر الصولى مشحونا بالمكائد والاضطرابات، ذلك أنه عصر سيادة العنصر التركى وسيطرته على الدولة، وعلى مقاليد الحكم بعد انقضاء العصر الفارسى.

طبعت الخلافة العباسية فى هذا العصر، بطابع الضعف والوهن لازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة حتى أصبح خلفاء هذا العصر مسلوبى السلطة ضعيفى الإرادة، بسبب تدخل هؤلاء الأتراك فى شئون الدولة، بل لقد كانت لهم القدرة على تنصيب مَنْ يشاءون، وعزل من يريدون، ووصل بهم الأمر إلى قتل بعض الخلفاء أو حبسهم وسَمْل أعينهم...، قُتِل المتوكل... وخلع ثلاثة بعده، ثم قتلوا بعد خلعهم وهم: **المستعين بالله** (٢٤٨-٢٥٢هـ)، **والمعتز بالله** (٢٥٢-٢٥٥هـ) **والمهتدى بالله** (٢٥٥-٢٥٦هـ) ومن مات بعد ذلك حامت حول موته الشبهات.

وكان حظ ولاة العهود لا يقل سوءا عن حظ الخلفاء أنفسهم، فقلما نجا أحدهم من الخلع أو السجن أو استصفاء الأموال.

تولى المعتز بالله الخلافة مثقلة بتبعات جسام، فقد تفاقم نفوذ الأتراك وعلى رأسهم «**بغا الكبير**» و «**بغا الصغير**» و «**أتامش**» و «**باغر**» الذين انقلبوا على الخليفة السابق، **المستعين بالله** - وفتكوا به، فورث عنه ثورتهم وفتنهم والحروب الأهلية، غير أن أمر هؤلاء الأتراك استفحل فى عهده استفحالا عظيما، وسرعان ما أصبحوا هم الحكام الفعليين للدولة، بيدهم الأمر كله، ولهم تصريف الأحوال، وتسلطوا على كل مجالات الحياة فى البلاد. وقد بلغ من غدر الأتراك وجبروتهم أن

قتلوا المعتز بالله شر قتلة[١] بعد أن عذبوه أعنف تعذيب.

ثم تولى **الخلافة المهتدى بالله** (٢٥٥-٢٥٦هـ) وكان كسابقيه ألعوبة فى أيدى الأتراك، وخاصة «**موسى بن بغا**»، وفى عهده ثار العامة، وثار الجند بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على رواتبهم، وأشعل العلويون نار الثورة فى كثير من البلاد، وبدأت الثورة (ثورة الزنج) التى هددت الدولة زهاء خمس عشرة سنة (٢٥٥-٢٧٠هـ)، وخرج الخوارج على الدولة، وتحدوا الخليفة، يتزعمهم **مساور الشاورى**، وقامت ثورات أخرى أهمها ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ، وهكذا أفلت زمام الموقف من يدى المهتدى، فلم يعد بقادر على أن يملك من أمور الدولة شيئا وسرعان ما أسر وخلع وعذب حتى مات[٢].

وخلفه **المعتمد على الله** (٢٥٦-٢٧٩هـ) الذى كان أول خليفة يُقْهر ويُحْجَر عليه ويُوكَل به[٣] فقد اعتلى العرش على أيدى الأتراك، الذين أخرجوه من «الجَوْسق» الذى حبسه فيه المهتدى، واستطاع أخوه «**أبو أحمد الموفق**» أن يشل يده عن مباشرة أمور الدولة، فأصبح مسلوب الإرادة، وبلغ الضعف به نهايته، فلم يكن له قدرة على الحل والربط، فلم ير بُدًّا من مصانعة الأتراك، وبذلك صار مسلوب الإرادة والسلطة أمام أخيه والأتراك جميعا.

بقى المعتمد فى الخلافة - ثلاثا وعشرين سنة، كانت عهد فتن واضطرابات ومحن وخطوب[٤] وقد تواترت الإشاعات بأنه سم[٥].

ثم تولى الخلافة **المعتضد بالله** (٢٧٩-٢٨٩هـ) وفى عهده انتعشت الدولة غير أن عهده لم يخل من ثورات ناهضت الخلافة وأقلقتها. ففى عهده خرج **عمرو بن**

---

(١) الكامل فى التاريخ - ابن الأثير - ٦٨/٧.
(٢) الكامل فى التاريخ - ابن الأثير ٨٣/٧.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٣.
(٤) تاريخ ابن الأثير ١٥٨/٧.
(٥) تاريخ ابن الأثير ١٥٨/٧.

الليث الصَّفَار واستولى على بعض بلاد فارس، وظهر القرامطة فى الكوفة على يد «**حمدان قرمط**» وفى البحرين على يد «**أبى سعيد الجبّائى**» - الذى جمع أخباره الصولى. وظهر **ابن حوشب** فى اليمن ونشر الدعوة «**للمهدى**»، وظهر أيضا **أبو عبد الله الشيعى** الذى نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب.

مات **المعتمد** على الله، وبعده **المعتضد بالله** ميتة طبيعية بعكس من سبقوهما من الخلفاء الذين فتك بهم الأتراك.. ثم آلت الخلافة إلى **المكتفى بالله** (٢٨٩-٢٩٥هـ) الذى اتسم عهده بالهدوء السياسى، ومن ثم اتجه إلى الإصلاحات الداخلية فى الدولة. ولما مات خلفه أخوه **المقتدر بالله** (٢٩٥-٣٢٠هـ) ولقد اختير لحداثة سنه، ليكون أسلس قيادا وأقل خبرة ولم يلبث أن خُلع، وبُويع **عبد الله بن المعتز**، إلا أن هذه لبيعة لم تدم غير يوم[٦]، فسرعان ما استطاع أتباع المقتدر إعادته إلى العرش.

وعصر المقتدر رغم أنه دام حوالى ربع قرن، إلا أنه وصف بأنه عصر تقلب الوزارات، فقد تولى فى عهده وزراء كثيرون، عُزل بعضهم، وسُجن البعض الآخر، وقد وصفه ابن الأثير[٧] «بأنه كان دائم الرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرف وفق إرادتهن، حتى لقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه - التى يطلق عليها المؤرخون اسم «**السيدة**».

ورث **القاهر بالله** الخلافة (٣٢٠-٣٢٢هـ) فورث الفتن الداخلية والحروب، وانقلب عليه بعض كبار رجال دولته، وخاصة «**مؤنس**»، ووزيره «**ابن مقلة**» وعقدوا العزم على خلعه فلما أحس القاهر بذلك عمل على التخلص منهم، فتحيل عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم[٨].

ولكن حظه لم يكن أقل سوءا ممن سبقوه من الخلفاء، فقد سُمِل وحبس مدة ثم

---

(٦) الفخرى لابن طباطبا ص ٣٥٩.

(٧) تاريخ ابن الأثير ٢٥/٨.

(٨) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٥٧.

أفرج عنه ،وساءت حالة حتى أنه خرج يوما يطلب الصدقة بجامع المنصور[٩].

ومنذ بداية القرن الرابع الهجرى نلمس عوامل أخرى زادت من ضعف الدولة العباسية[١٠]

أولها وأهمها: تفاقم خطر الدويلات المنشقة المستقلة.

وثانيها: بداية عهد أمراء الأمراء وسيطرتهم على الدولة.

فلقد كان مطلع القرن الرابع. والحالة السيئة التى وصلت إليها الدولة العباسية، بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التى ناوأت الخلافة، فقد قامت فى أطراف البلاد دويلات عديدة نظرا لزيادة نفوذ أمرائها وحكامها - هذا فى عهد **الراضى بالله** (٣٢٢-٣٢٩هـ)، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه استعان فى إدارة شئون دولته ببعض وزراء ضعاف من أمثال «**أبى على بن مقلة**»، **وعبد الرحمن بن عيسى بن الجراح وأبى جعفر محمد بن القاسم الكرخى، وسليمان بن الحسن بن مخلد**، فلما رأى الخليفة الراضى عجزهم - نظرا لازدياد نفوذ القواد، وتدخلهم فى أمور الدولة - اضطر إلى استمالة أكبر الأمراء وسلمه مقاليد الحكم ، فأسند إلى «**ابن رائق**» كافة أمور الدولة ورتبه أمير الأمراء[١١]، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم بعد أن ترك له الخليفة الأمر، «ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع، وفوض إليه تدبير المملكة، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر.. وأن يكنى، وأنفذ إليه الخلع واللواء[١٢]».

وهكذا صارت «**لابن رائق**» السلطة العليا فى الدولة، وقيد بذلك سلطة الخليفة، ولاشك أن ذلك كان يحز فى نفس الراضى، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئا، والدولة تكاد تنهار من ناحية ولخوفه من بطش الأتراك ومكائدهم من ناحية أخرى. على أن نفوذ «**ابن رائق**» لم يلبث أن ضعف سنة ٣٢٦هـ من جراء منافسة الأمراء

---

(٩) الفخرى - لابن طباطبا ص ٣٧٤.

(١٠) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى - دكتور حسن إبراهيم ٢٦/٣.

(١١) الفخرى - لابن طباطبا ص ٣٨٤.

(١٢) تجارب الأمم - لمسكويه ٣٥١/١.

له. وانتقل الصراع الداخلى - فبعد أن كان بين الخلفاء وكبار القادة والأمراء، أصبح بين أمراء الأمراء وكبار القواد، فقد حاربه **أبو عبد الله البريدى** صاحب الأهواز، كما خرج عليه «**بجكم**» أحد قواده وحاربه وأجهز عليه، ودخل بغداد سنة ٣٢٧هـ، فسر الراضى بمقتله، وولى **بجكم** إمرة الأمراء، وانتهى بذلك نفوذ ابن رائق، واستبداده وتسلطه.

تولى **بجكم** السلطة فى الدولة زهاء سنتين (٣٢٧-٣٢٩هـ) غير أن الحالة فى عهده لم تكن بأحسن منها فى عهد من سبقوه، فقد وصلت الدولة إلى مرحلة من الضعف بحيث لم يتمكن الخليفة من دفع أرزاق الجند، ولا من الحصول على ما يكفيه. وظلت الحياة على ما هى عليه حتى توفى **الراضى بالله** سنة ٣٢٩هـ. ثم تولى الخلافة **المتقى لله** (٣٢٩-٣٣٣هـ) وسرعان ما تتابعت النكبات على **بجكم**، وأخذ نجمه فى الأفول، وانتهت هذه النكبات بمقتله، بيد بعض الأمراء الذين عول على انتهاب أموالهم، غير أن قتل بجكم لم ينه عهد نفوذ الأتراك، فقد دخل **أبو الحسن البريدى** واسط ثم بغداد فى جيش كثيف من الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة، وقلد الوزارة **أبا عبد الله البريدى**، فهرب **المتقى لله** وابنه إلى الموصل[١٣].

استولى البريديون على السلطة الفعلية للدولة، وأصبح بيدهم الأمر والنهى، يقتلون كل من يقف فى طريقهم، ويصادرون أموال من يشاؤن.. وساءت أحوال الدولة حتى استوزر المتقى لله - فى منفاه - **أبا اسحاق محمد بن ابراهيم الإسكافى** المعروف **بالقراريطى** فأشار على الخليفة بأن يعين «**كورتين**» أميرا للجيش، ففعل، وسرعان ما أرسله المتقى على رأس جيش كبير، هزم البريديين وأخرجهم من واسط، وأعاد الخليفة المتقى لله إلى دار الخلافة ببغداد سنة ٣٣٠هـ بعد أن غاب عنها - كما يقول الصولى[١٤] - ثلاثة أشهر وعشرين يوما. وتقلد **توزون** شرطة

(١٣) أخبار المتقى لله للصولى - ص ١٩٧-٢٠٠.

(١٤) أخبار المتقى لله- للصولى - ص ١٩٧-٢٠٠.

بغداد واستمر القراريطى فى لوزارة.

ثم سطع نجم بنى حمدان فى أفق الدولة العباسية، واعتقد المتقى لله أن الحمدانيين سيسندون ظهره، وسيحمون عرشه، فخلع عليهم ووهبهم العطايا والمنح... على أن حالة بغداد فى عهدهم لم تكن بأحسن منها فى عهد من سبقوهم[١٥]. أما عن استبدادهم بالحكم وبالخليفة المتقى.. يقول الصولى[١٦]: «وضيق ناصر الدولة على المتقى لله فى نفقاته، وعلى أهل داره، وانتزع ضياعه وضياع والدته، فجعلها فى جملته..»

على أن عهد المتقى لله لم يطل، فلم يدم الصفاء بينه وبين توزون، الذى قبض على المتقى ونهب أصحابه ممتلكاته وأمواله، وأصدر حكمه عليه بالعزل والسمل والموت.. ونفذه.

ثم تولى الخلافة **المستكفى بالله** (٣٣٣-٣٣٤هـ) الذى كان ألعوبة فى يد **توزون**. تقول المصادر[١٧] «إن توزون ضم إليه غلاما تركيا من غلمانه يقف بين يديه للوقوف على أسراره ولمعرفة ما يجرى فى قصر الخلافة من أمور».

ولم تطل حياة توزون، فمات فى أوائل عهد المستكفى بالله سنة ٣٣٤هـ، فخلفه فى إمرة الأمراء «**أبو جعفر بن شيرزاد**» الذى كان - كما وصفه الصولى - من أحسن الأمراء سياسة، إلا أنه لم يكن أقل عنتا ممن سبقوه. ولم تطل خلافة **المستكفى بالله**، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر، حتى سقطت بغداد فى يد «**معز الدولة بن بويه**» الذى لم يكد يستقر بها حتى حجر عليه، وسمل عينيه، واستدعى **الفضل بن المقتدر** وبايعه بالخلافة ولقّبه **المطيع لله** (٣٣٤-٣٦٣هـ).

---

(١٥) أخبار المتقى لله - للصولى - ص ٢٣٤-٢٣٧.

(١٦) أخبار المتقى لله - للصولى - ص ٢٣٥.

(١٧) مروج الذهب - المسعودى - ٥٤١/٢.

ولم يكن للخليفة العباسى فى عهد البويهيين شىء من النفوذ، لذلك فهم لم يدخروا وسعا فى تقوية نفوذهم وسلب السلطة من يد الخلفاء.

وخلاصة القول: إن عصر الصولى - الذى ولد ونشأ وعاش فيه - كان عصر اضطراب ومحن سياسية ودسائس وحروب وصراع داخلى من أجل السلطة، ومحاولة للسيطرة على مقاليد الحكم وأموال الدولة، وصراع خارجى من أجل استقطاع أجزاء من الدولة، وتكوين دويلات أو إمارات مستقلة، انتشرت فيه الجاسوسية والدَّس والقتل والإرهاب بين الخلفاء والوزراء والقواد وأمراء الأمراء.. فساءت الأحكام والأحوال العامة، وتكاثر الفساد بسبب ذلك، وعمت الرشوة والمصادرة والفتك، فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وممتلكاتهم وأموالهم، وأصبحت البلاد فى حالة من الفوضى، ليس فيها أمن المقام ولا طيب العيش، واشتعلت الخصومات والمنازعات بين الأفراد..

هذا الجو المشحون بالمكائد، والملبد بالدسائس، دفع الصولى وأضرابه، الذين لا يحبون العمل بالسياسة، إلى أن يبتعدوا عن هذا الجو الغريب، وأن يعتزلوا بمنأى عن التيارات السياسية، ويتفرغوا للعلم والأدب، ويعتكفوا - فى وقت فراغهم - على التدوين والتأليف، خدمة للعلماء والأدباء وطلاب المعرفة.. وليكونوا بمنجاة من الدسائس والوشايات التى سادت فى العصر.

* * *

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

ورث عصر الصولى حضارات العرب والفرس والروم، وأساليب اللهو فى هذه الأمم وفى الأمم الأخرى التى اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمعت الأموال بكثرة مفرطة فى أيدى الخلفاء والأمراء والوزراء وجباة الخراج. فبلغ الترف فيه ذروته، فكانت بغداد - وهى حاضرة الخلافة العباسية ومركزها السياسى والإجتماعى - صورة واضحة لحياة الثراء والأناقة.

ومما يصور الحياة العباسية المترفة، ما ذكرته المصادر القديمة عن الخلفاء ومعيشتهم وقصورهم وحدائقهم، فقد ذكر الخطيب البغدادى[1]: «إن قصور المقتدر كانت تحوى العديد من ستور الديباج المذهبة بالطرر الجليلة، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع» وذكر أيضا: إنه كان بأحد قصوره بركة رصاص حولها بستان بميادين فيها نخيل، قيل إن عدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها إلى الطلع بحلق من شبه مذهبة.

ولم يكن الترف والثراء الفاحش وقفا على الخلفاء والأمراء وحدهم، بل إن الوزراء أيضا كانوا يعيشون فى رغد من العيش، فقد أصابهم ما أصاب خلفاءهم من الترف جزءا كبيرا، فتذكر المصادر أن **الوزير أبا الحسن بن الفرات** - الذى طالما مدحه الصولى - أنفق على الدار التى كان يقطنها فى وزارته الثانية ثلثمائة ألف

(١) تاريخ بغداد - الخطيب البغدادى - ١/١٠٠.

دينار، وأنه لما أمر بإصلاحها بلغت النفقة خمسين ألف دينار[٢].

ونتيجة للفتوحات وكثرة الأموال وإنتشار الحضارة.. كثر الرقيق كثرة مفرطة، فامتلأت بهم قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد وعلية القوم.. وكان الرقيق يباع ويشترى، وكانت بغداد أعظم سوق فى الشرق لتجارته، وكان يجلب من بلاد الزنج وأفريقيا والهند إلى جانب ما يجلب نتيجة للأسر فى الحروب، وقد ارتقى بعض هؤلاء الأرقاء الرقيق حتى وصل إلى مناصب كبرى فى الدولة، وفى بعض دواوين الخلافة، فأتخذ الخلفاء منهم قادة للجند مثل «**مؤنس**» وولاة للامارات مثل «**مردواج وبجكم**» بل ومنهم من تلقب بأمير الأمراء مثل «**ابن رائق، وكورتين، وتوزون**» وغيرهم كثيرون.

واتخذ القوم لأنفسهم «**ندماء**» لكى يروحوا عن أنفسهم، ويدخلوا البهجة على قلوبهم - أولئك الناس الذين يجمعون بين آداب شتى ومعارف جمة، ويتقنون الحديث، وسرد الأخبار، وقص الحكايات، ورواية الأشعار، وإلقاء النكات، ولعب الشطرنج، وغير ذلك من الفنون.

وشاعت فنون الخلاعة والمجون، وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرف علماؤه والمتفننون فيه، ويقرب أهله إلى الخلفاء وذوى الرئاسة، حتى الرقص والغناء.

وبعث التأنق فى الحياة إلى استحداث آداب المجالس وآداب السمر، وآداب المائدة، وأصبح للقوم فى هذه الآداب ما لم تتحدث بمثله المصادر عن ملوك رومة. وبيزنطة وفارس، فكان من الرؤساء والوزراء من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة، كما قيل عن **الوزير المهلبى**.

---

(٢) كتاب الوزراء - للهلال بن المحسن - ص ١٧٩.

وتفنن القوم فى الطهو، وفى أصناف الحلوى، وكان الخلفاء لا يتناولونها إلا بعد أن يصفها لهم الجلساء والندماء. ويبالغون فى حلاوتها وصناعتها، ويذكرون كل ما قاله الشعراء فيها. كما تواضعوا على تصميم الملابس وزركشتها وتطريزها بالمذهبات، وتنويعها حسب المناسبات. واحتفل الخلفاء فى هذا العصر - لا بالأعياد الإسلامية فقط، بل وأيضا بأعياد الفرس، كعيد النيروز، وأعياد الترك، وأكثر الشعراء من مديحهم فى هذه المناسبات. وشارك الصولى فى هذا فله قصيدة زائية رائعة يمدح فيها الراضى بالله ويهنئه بعيد النيروز.

وتشبه الأوساط وبعض الفقراء بعلية القوم وأغنيائهم، فكثرت الحانات وبيوت القيان، وأدمنت المعاقرة صبوحا وغبوقا، وشاع إقتناء الجوارى والغلمان، واستبيحت اللذات على أنواعها، مألوفها وغير مألوفها، طبيعها وشاذها، وتكشفت الوجوه، وقل الحياء، واستشرى الفساد، بعد أن صار الحكام والولاة هم قدوة الناس فى هذه الأفانين، وهم موضع النعمة الذين يقتدى بهم، وتصبو إليهم نفوس المحرومين.

وتهالك الناس أيضا وتراموا - على أعتاب القصور والدور - على العمالة والكتابة وسائر الوظائف الدائمة التى تدر مالا ثابتا، وتؤخذ رواتبها من الجبايات والرشى والأسلاب. وكانت قد تحطمت الحواجز والحدود من قبل، وتغيرت الحياة الاجتماعية، من حيث الزواج والمصاهرة، فامتزج الدم العربى بالدم الفارسى، بالدم التركى بغيره من الدماء الأخرى، فنجد كثيرا من أمهات الخلفاء والأمراء من أصل فارسى أو تركى أو رومى: كما اتخذ الخلفاء من السبايا والإماء الأجانب زوجات لهم، وكان لبعضهن نفوذ ودل وسيطرة على قلوب الخلفاء والأمراء.

وكانت تقام حفلات الزواج بطريقة تدل على الثراء والترف، فكانت تنثر الدنانير الذهبية والدراهم على الناس - وكأنها مطرا - تيمنا وغبطة، ولقد ذكر

الصولى أنه فى زواج ابن المتقى من ابنة البريدى نثر على الناس خمسة آلاف دينار ومائة ألف درهم[٣].

وإذا كانت الحياة الاجتماعية على هذا النمط فى القصور، متأثرة ومتشبهة بالشعوب المفتوحة، والأمم المتحضرة من الفرس والترك والروم وغيرهم، وإذا كان الترف والثراء قد انعكس على حياة المجتمع العباسى من حيث سكنى القصور والمظاهر والمأكل والمشرب والملبس، وجميع فروع الحياة الأخرى، فليس معنى ذلك أن عصر الصولى كله عاش على هذا النمط، وسار على هذه الوتيرة، أو أن هذه هى طبيعته التى عاشها كل الناس بل إن هذا الترف فى قصور الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة.. كان يقابله فقر مدقع، وحرمان شديد عند آلاف العامة. فأدى هذا الترف إلى الفوضى السياسية وانحلال المجتمع، كما كان الدافع الأساسى إلى ثورة الشعب نتيجة للشقة الهائلة بين طبقات المجتمع، ووجود الفارق الكبير بين الطبقتين: **الطبقة المترفة، والطبقة المعدمة**، ترف القلة وبذخهم، وحرمان الكثرة وبؤسهم. ثراء فاحش فى قصور الحكام، وفقر قاتل فى بيوت الشعب، حتى لقد وجد من أفراد الشعب - كما يقول الصولى - من لا يجدون قوت يومهم، ومن كانت حياتهم ضنكا وبؤسا وشقاء.

ولقد أدى الفقر والحرمان إلى زهد القلة، وفساد الكثرة.. فخرّجت هذه الحياةالبائسة العديد من الزهاد الذين ألجأهم الفقر إلى الله، وقد اعتكفوا فى المساجد وزهدوا فى الحياة الدنيا، ورضوا بما قسم الله لهم فى دنياهم، آملين فيما ينتظرهم فى آخرتهم من ثواب الله.

ولكن هذه الأوضاع وهذه الحياة، لم تكن لتعجب غيرهم ممن رفض الاستسلام وحياة الإستكانة والمهانة، فخرج مشمرا عن ساعديه، يأخذ حقه بيديه، طالبا حق

(٣) أخبار المتقى لله - للصولى - ص ٢٠٢.

الحياة، آبيا الخضوع والخنوع، فكان يأخذ حقه من الأثرياء عنوة بالهجوم على القوافل وعلى القصور، خاطفا ما تستطيع أن تصل إليه يداه، وهكذا انتشرت السرقة، وساد النهب والسطو والقتل، واشتعلت الثورات، ثورة فى إثر ثورة، وكلما أخمدت ثورة فى مكان اشتعلت أخرى فى مكان آخر، واختلفت وتعددت باختلاف الدوافع والأغراض.

فقامت **ثورة الزنج** (٢٥٥-٢٧٠ هـ)، التى اختلطت فيها الأسباب السياسية بالأسباب الاجتماعية، وكان أقوى دوافعها الانتقام من المترفين وذوى الثراء، والحصول على الحقوق الإنسانية، فاستمال صاحبها العبيد[٤]، الذين كانوا يشتغلون بحمل السباخ، وقد أخذ يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال، ووعدهم بتحرير رقابهم، وتمليكهم الأموال والمنازل، فكانت من أهم الثورات الاشتراكية والشعبية فى العصر.. ولقد كانت من العنف والقوة حتى أنها أقلقت نوم الخلفاء وزعزعت عرشهم، فواجهوها بقوة، حتى لقد قتل بسببها - كما يقول السيوطى[٥]: من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف آدمى، وقتل فى يوم واحد بالبصرة ثلثمائة ألف»، وشاءت الأقدار أن تزيد المحن شدة فوق شدة، فحدث إبان هذه الثورة هزات وزلازل، فمات تحت الردم ألوف من الناس[٦].

وقامت **ثورة العامة** لغلاء الأسعار واعتصموا فى مسجد الرصافة[٧]، ودخل الجند فى طلبهم إلى الصحن، فصعدوا إلى السطوح، وغتوا الفرسان بالحجارة حتى هربوا.. وحارب الجند العامة بباب الطاق، فأخذ السلطان جماعة فضربهم بالسياط.

---

(٤) الفخرى لابن طباطبا - ص ٢٢٧

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى - ص ٣٧٣.

(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى - ص ٣٧٢.

(٧) أخبار الراضى بالله - للصولى - ص ٧١.

واشتعلت أيضا ثورات الهاشميين الذين اتخذوا من المساجد موقدا لها.. وسودوا وجوههم ومنعوا الأئمة يوم الجمعة من الصلاة[٨].

وانتشرت المنشورات السرية فى البلاد نتيجة للسرقات والإختلاسات، وقامت بسببها - وبغيرها من الأسباب - المصادرات[٩]، ولم تكن هذه المصادرات مقيدة أو مقصورة على بعض دون بعض، بل شاملة للجميع.. فصادر الخلفاء؛ الوزراء والأمراء والولاة، بل صادر بعضهم البعض، فكان اللاحقون يصادرون أموال السابقين وزوجاتهم وأمهات أولادهم... فقد «صادر القاهر جماعة من أمهات أولاد المقتدر، وصادر أم المقتدر واستخرج منها مائة وثلاثين ألف دينار[١٠]. وليس هذا فحسب، بل انتشر أيضا نظام الاقطاع، فكان الخلفاء يقطعون لمن يشاءون أرضا أو عقارا، كذلك الولاة كانوا يتعهدون بأنفسهم الأرض والمرافق لتأدية ما يطلب إليهم أداؤه من الأموال، وكثيرا ما وضعوا أيديهم عليها، وكثيرا ما انتزعوا الأرض من أصحابها عنوة، وصادروها بالاضافة إلى مصادرة الأموال والممتلكات.

ولقد كانت الوزارة والعمل فى دواوين الحكومة، وسيلةإلى الاثراء والنهب، وكان القائمون على خزانة الدولة يختلسون منها، وأيضا يفرضون الإتاوات على العمال والموظفين، ومن المؤسف حقا، أن بعض الخلفاء كانوا على علم ببعض هذه الاختلاسات والإتاوات، من ذلك ما كان يفعله **سليمان بن وهب** - وزير المهتدى - الذى كان يطلب من كل صاحب وظيفة «**المعجل والمؤجل**»[١١]. وراجت أيضا الرشوة، وانتشرت وبلغت نهايتها فى أواخر القرن الثالث، حتى أن الوزير **الخاقانى**

---

(٨) أخبار الراضى بالله - للصولى - ص ٦٦.

(٩) أخبار الراضى بالله - للصولى - ص ٦٦.

(١٠) الفخرى - لابن طباطبا - ص ٣٧٤.

(١١) مروج الذهب - المسعودى - ١١٨/٢.

- الذى كان سيء السيرة والتدبير، كثير التولية والعزل - ولّى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة، وأخذ من كل واحد منهم رشوة[١٢].

وهكذا كان عصر الصولى.. ترف وبذخ وفوضى، أولد الدولة اضطراب سياسى وسرقات ورشاوى، ومصادرات ونكبات أتت على كل شيء.. تأهبت فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتعلقت الآمال بالمهدى المنتظر، والمصلح الأكبر الذى سيملأ الدنيا عدلا، بعد أن ملئت جورا وفجورا. فكان عصره عصر داعية الزنح والقرامطة والحلاج والشيعة العلويين وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية، ويعالجون الترفيه عن الفقراء المدقعين، والعبيد المعدمين بالدعوة إلى المساواة، والحضّ على التمرد، ومناهضة الحكام. وسرعان ما أدى ذلك كله إلى تقطيع أوصال الدولة، وطمع الأمراء وولاة الأقاليم فيها، فأستقل الأمير تلو الأمير، وتكونت الدويلة بعد الدويلة حتى سقطت بغداد فى النهاية.

---

(١٢) الفخرى - لابن طباطبا - ص ٣٦٣.

الفصل الثالث

الحياة الثقافية والعلمية

فتح العباسيون نوافذهم للثقافات العالمية، بل فتحوا الأبواب على مصاريعها لكل الثقافات الوافدة على الفكر العربى من فارسية ويونانية وهندية وتركية وغيرها من ألوان الثقافات القديمة والمعاصرة. حتى إذا وصلنا إلى عصر الصولى، وجدنا أن الحياة الثقافية والعقلية قد بلغت عنفوان أمرها. وبلغت الذروة من الرقى والنضوج، وقد كان من نتائج دخول الثقافات الأجنبية الواردة، وامتزاج هذه الثقافات مع الثقافة العربية الإسلامية أن نشأت حياة عقلية علمية ثقافية لها طابعها الخاص.. ذلك الطابع الذى يمتاز بامتصاص الثقافات الأجنبية، وإضافتها إلى عناصر الفكر العربى الأصيل.

ولقد أدت الترجمة دورها كاملا فى صقل العقل العربى، بعد أن قدمت إليه هذا العدد الوفير من العلوم التى نقلت إلى عقله ولسانه، وسهلت له أن يستوعب كل ما يصادفه من علوم وآداب وثقافات، خاصة بعد أن دخلت فى حظيرة العروبة والإسلام شعوب متباينة فى لغاتها وأجناسها وعاداتها وثقافتها، صهرت جميعا فى البوتقة العربية، وامتزجت بالعنصر العربى تماما، فتعربت، وصارت أكثر من العرب أنفسهم إنتاجا. فكان لدخول هذه الأجناس فى مجال العروبة والإسلام، واختلاط العرب بأهل هذه الأمم المفتوحة عن طريق التزاوج وتسرى الإماء، أو عن طريق الولاء.. أكبر الأثر فى صبغ الثقافة العربية بصبغات أخرى زاهية الألوان، ونتج عن ذلك كله أن خرجت لنا الثقافة العربية الإسلامية، ثقافة واسعة شاملة حاوية لجميع الثقافات التى انعكست على مرآتها. وتغير كل شىء فى حياة الأمة العربية

الثقافية والعلمية.. كثرت العلوم، وتعددت المؤلفات وتغيرت المفاهيم وتغيرت التصورات وتغيرت الأذواق والأمزجة. فارتقت الآداب والعلوم، وعلى ضوء هذا التغيير نهضت الحياة العلمية والأدبية نهضة واسعة وتعددت مجالاتها.

وعصر الصولى يعتبر من أزهى العصور فى الإسلام من الناحية العلمية، ففيه نمت وأينعت علوم الثقافة الإسلامية كلها، وأهمها علوم القرآن.. فقد وضح ابن قتيبة كتبا فى غريب القرآن ومشكل القرآن وغير ذلك.. كما وضح الطبرى تفسيره.. ووضع الصولى فى هذا المجال كتابا سماه «الشامل فى علم القرآن».

ووضعت كتب الحديث المعروفة بكتب الصحاح الستة.. فقد وضع البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ الجامع الصحيح، وألف مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ «صحيح مسلم» وألف ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣هـ سننه، وألف ابن داود المتوفى سنة ٢٧٥هـ سننه، وألف الترمزى المتوفى سنة ٢٧٩هـ جامعه، وألف النسائى سنة ٣٠٣هـ سننه.. وهذه هى الكتب الستة التى تعد أصح كتب الحديث. وألف كثير من العلماء كتبا فى الحديث وشرحه وتأويله.. منهم الصولى فقد ذكر أن له كتبا[١] متعددة فيه، وذكرت بعض المصادر أن له «جزءا فى الحديث»[٢]، كما وُضعت كتب الرجال، وغير ذلك مما يتصل بالسنة الشريفة.

وفى عصر الصولى استقرت دعائم المذاهب الأربعة فى الفقه، ووضعت الكتب حول الفقه، توضح علومه واختلاف المذاهب فيه، وتشرح أمور الدين والشرع، وكثرت المؤلفات فيه، وبرز من أعلام الفقه: أبو اسحق إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢هـ إمام المالكية فى عصره، وله مؤلفات كثيرة فى الفقه، وعبد الله ابن الإمام أحمد ابن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠هـ إمام الحنابلة ، وأبو على الحسن بن

---

(١) أخبار أبى تمام - للصولى - ص ٦٢.

(٢) الفهرست - لابن النديم - ص ١٥٠.

القاسم المتوفى سنة ٣٠٥هـ مؤلف كتاب المحرر فى النظر، وكتاب الإفصاح فى الفقه، وأبو بكر عبد الله بن داود السجستانى المتوفى سنة ٣١٦هـ، وأبو الحسن عبد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠هـ إمام الحنفية وغيرهم من الفقهاء.

وليس هذا فحسب، بل اتضحت آثار الفرق الإسلامية على اختلاف آرائها ومناهجها.. فنجد منهاج أهل السنة الذين تشددوا فى إنكار البدع، ومناهج الفرق الإسلامية المتعددة كالمعتزلة والمرجئة والشيعة والظاهرية.. ولكل فرقة من تلك الفرق منهج خاص تسير عليه كما كان لها تفسيراتها لنصوصها وكتبها وآرائها.

وفى هذا العصر لم يعد هناك علم قديم أو حديث إلا وله كتب وأعلام نابغون فعلوم اللغة والأدب والنحو والرواية نجد لها أعلاما مشهورين، منهم السجستانى (حوالى ٢٥٤هـ)، والرياشى (سنة ٢٥٧هـ)، والمبرد (سنة ٢٨٥هـ)، وثعلب (سنة ٢٩١هـ)، والزجاج (سنة ٣١١هـ)، والأخفش الأوسط (٣١٥هـ)، وابن دُرَيد (٣٢١هـ)، وابن الانبارى (٣٢٨هـ)، والصولى (٣٣٦هـ).

وعلم التاريخ وفتوح البلدان والأنساب نجد له أعلاما منهم: اليعقوبى (٢٧٨هـ)، والبلاذرى (٢٧٩هـ)، والطبرى (٣١٠هـ)، والمسعودى (٣٤٦هـ).

والفلسفة والمنطق نجد لها أعلاما منهم: الكندى (٢٥٠هـ)، والفارابى (٣٣٩هـ).

وراج علم الفلك حتى أوشك ألا يكون فى ذلك الزمن إلا منجم، بل لعله كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلابا لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته، وشيوع الحضارة الفارسية التى كان أهلها يعبدون الكواكب. ولقد كان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم والكواكب أثراً فى أحداث الكون من موت وحياة وسعادة وشقاء وصحة ومرض، وينوطون بها مقادير الخير والشر، وطوالع السعد والنحس. وقد عظم شأن المنجمين فى العصر، واستغلوا إيمان الناس بالتنجيم حتى الخلفاء.

فالمعتز بالله حين تولى الخلافة أحضر خواصُّه وتباعه المنجمين ليعرفوا كم يحكم وكم يعيش[٣]. وقد أُلفت فى هذا العلم الكتب، ووضعت الحسابات الفلكية للكسوف والخسوف وطبقوا نتائجها على حياتهم وحياة من هم حولهم، كما فعل الصولى بعد مصرع الخليفة المتقى لله[٤].

ولقد كانت الثقافة قسمة شائعة بين الناس جميعا، يشارك فيها خاصتهم وعامتهم، فالكل يشتغل بها ويقتنى كتبها ويحضر مجامعها ومناظراتها. وقد شاع ذلك بينهم شيوعا كبيرا، حتى أننا لنرى بعضهم يجمع أمشاجا كبيرة من الثقافات فى مختلف المجالات، فيكون أعجوبة الأعاجيب فى اتساع ثقافته وتنوعها، وفى كثرة مؤلفاته وموادها.

فابن قتيبة مثلا (٢٧٦هـ) أديب وراوية وناقد ومحدث وعالم بالقرآن وله مؤلفات كثيرة فى هذه النواحى. والطبرى (٣١٠هـ) مؤرخ ومفسر وفقيه. وله كتب عدة. وابن دُرَيد الأزدى (٣٢١هـ) من أكبر علماء اللغة والأدب والنحو والصرف والأنساب، وابن الأنبارى (٣٢٨هـ) عالم باللغة والأدب والقرآن والسنة ومؤلف لعشرات من الكتب.

أما الصولى فكان أديبا وناقدا وعالما باللغة والأدب، وراويا واخباريا ومؤرخا وعالما بالقرآن ومحدثا وفقيها وملمًّا بعلوم الهندسة والفلك إلى جانب نبوغه فى علم الشطرنج.. وله مؤلفات جمة فى كل هذه المعارف..

ولاشك أن هناك عوامل ومؤثرات ساعدت على انتشار العلوم وتنوع الثقافات. أول هذه العوامل وأهمها: الحرية الفكرية، التى أنارت العقول وشجعت الهمم وحركت الألسنة، فأخرجت لنا العديد من الكتب فى الدين واللغة والتاريخ. فليس

---

(٣) الفخرى - لابن طباطبا - ص ٢٢.

(٤) أخبار المتقى لله - للصولى - ص ٢٣٨.

هناك «ما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وخوى نجم التقية، وهبت ريح العلماء ، وكسد العِيّ والجهل، وقامت سوق البيان والعلوم[٥].

وكان من أبرز مجالات هذه الحرية: **الدين**. وقد وضحت الحرية الفكرية عند الشعراء والأدباء. فقد ضمنوا مدائحهم وكتاباتهم آراء وتعاليم بعض الفرق الإسلامية، خاصة ما يتصل منها بتمجيد الخلفاء وأولى الأمر.. وجعلوا ذلك سبيلا لنيل كثير البر وجزيل العطاء، فمدحوهم بأنهم من سلالة النور الإلهى.. وربطوا بين طاعة الله وطاعتهم، وأن من يخالفهم كافر له العقاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.. ونجد من هذه المعانى الكثير فى مدائح الشعراء.. وأيضا فى مدائح الصولى للخلفاء.

أما العامل الثانى فهو: **امتزاج الثقافات**. إذ كان من أثر اختلاف السكان، وتعدد الأجناس، فى الدولة وتباين أصولهم وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك.. أن تنوعت الثقافات وتداخلت حتى ليمكن القول أنها كانت تكمل بعضها البعض. فامتزجت الثقافة الفارسية بالثقافة اليونانية بالثقافة الهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وكان محصلة ذلك تكامل ثقافى فى شتى فنون المعرفة. ولاشك أن الذى ساعد على ذلك تعريب الكثير منهم، ودخول الكثير من أفراد هذه الأمم المفتوحة والمجاورة فى الإسلام، فكانت ثقافة العصر ثقافة متنوعة مختلفة، لأمم متعددة مختلفة.

وكان أثر الثقافة الفارسية فى الثقافة العربية الإسلامية واضحا فى العديد من النواحى، وأظهر ذلك «**الألفاظ الفارسية**» التى تسربت إلى معاجم اللغة العربية، فاستعملها الشعراء العباسيون فى أشعارهم، منهم الصولى، فله زائية تحوى العديد من الألفاظ الفارسية، كما تخرج فى فارس كثير من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين واللغويين والنحاة والأدباء والفلاسفة، ونقلوا كثيرا من تراث آبائهم إلى العربية،

---

(٥) الحيوان - للجاحظ ٤٣/١.

وقد أرخ الصولى لتحويل الديوان من النظام الفارسى إلى النظام العربى[٦]

وكان للثقافة اليونانية تأثيرها القوى فى العلوم الإسلامية، فالمنطق اليونانى، الذى أطلق عليه ابن سينا «خادم العلوم» لون العلوم العربية الإسلامية بلونه الخاص. كما كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين والفلاسفة،وأثرت البلاغة اليونانية فى البلاغة العربية، وعرب كثير من الألفاظ اليونانية واستخدم الشعراء كثير من ألفاظ المناطقة والفلاسفة وضمنوها أشعارهم، كما اتخذ الأدباء العديد من حكم اليونان. وقد ضمن الصولى كتابه «أدب الكتاب» العديد من حكمهم وآرائهم وأقوالهم فى الحياة والفن والأدب والكتابة.

وقد اكتسب القوم ثقافة الهند عن طريق الفرس، وكانت أول أمرها تتصل بالالهيات[٧] والحكم والفن والشطرنج. وقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالدين الهندى، فأخذوا عنه فكرة تناسخ الأرواح. وقد ترجم إلى العربية كثير من كتب الهند وخاصة ما يتصل بالكواكب والنجوم.

وقد اطلع الصولى على بعض هذه الكتب وعرف ما حوته، وظهر ذلك واضحا فى ثقافته وكلامه عن النجوم والكسوفات[٨]. ووضحت الثقافة الهندية عنده فى حذقه لفن الشطرنج والتأليف فيه.

وخلاصة القول: إن عصر الصولى كان عصر الشمول، عصر امتزاج الثقافات.. عصر الإلمام بكل العلوم والمعارف والفنون.

ولاشك أن مما ساعد على هذه النهضة الثقافية والعلمية - أن هذا العصر كان عصر الموالى من مختلف الاجناس، أولئك الذين كانت العصبية الجنسية تدفعهم إلى

---

(٦) أدب الكتاب - للصولى - ص ١٩٢.

(٧) الإلهيات: أى الدين ممتزج بالفلسفة.

(٨) أخبار المتقى لله - للصولى - ص ٢٣٨.

دراسة العلوم الحديثة، والتعمق فيها لأنها تنافس العلوم العربية، فضلا عن أنهم كانوا يبغون ألا ينفرد العرب بالدين والسياسة والعلم، وألا يستأثروا دونهم بكل كمال وفضيلة.

الفصل الرابع

الحياة الأدبية والنقدية

استقل الأدب - فى عصر الصولى - عن غيره من العلوم - وأخذت علومه تتضح وتستقر، ولم يعد يعتمد على الرواية والنقل عن السلف فحسب، بل أن الأديب كان يتحرى الصدق ويتدبر الروايات، ويأخذها من أفواه المعاصرين الثقات.

ولقد كان للحوادث التى ألمت بالدولة الإسلامية فى ذلك الحين، أن تحول الأدباء إلى نشر الأخبار وسير الرجال، وجمع الشعر وتوثيقه، ورواية الأحاديث، والتأليف فى علوم القرآن.. إلى غير ذلك، لأنهم وجدوا فيها مواد خصبة للكتابة والتأليف من ناحية، ولأن ذلك يبعدهم عن ويلات السياسة من ناحية أخرى. فظروف العصر وحوادثه جعلت البعض يجمعون إلى جانب الإشتغال بالأدب الإشتغال بفنون أخرى تتصل بالتاريخ والمنادمة والتأليف فى العلوم المختلفة.

ويهمنا فيما يتصل بالحياة الأدبية والنقدية، أن نتبين ملامح الشعر وأغراضه، والنثر وأنواعه والنقد الأدبى واتجاهاته فى ذلك العصر.

أولا: الشعر

عاش فى عصر الصولى - وقبله قليلا - نخبة من فُحُول الشعراء النابهين كأبى تمام وإبراهيم بن العباس ودعبل الخزاعى، والبحترى، وابن الرومى، وابن المعتز. وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين، المحترفين وغير

المحترفين، وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعرا ينظم الأبيات والمقطعات فى بعض أغراضه. فالخلفاء كانوا ينظمون فى الغزل والغناء وأيضا فى الفخر والرثاء، ينظمون فى حلمهم وغضبهم، ويصورون الأحداث حولهم، ويهجون أعداءهم. والأمراء والوزراء كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشىء الكثير، والمنتمون إلى الفرس أو الترك كانوا أسبق إلى المنافسة فى هذا المجال لينفوا عن أنفسهم تهمة العجمة، وليتنافسوا مع العرب فى ميدان الفصاحة والشعر.

ولقد طبع الشعر بطابع الحضارة والترف وظهر ذلك واضحا من حيث الشكل أو المضمون، ونَدُر فى ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة، فمن لم تظهر فى شعره **المعانى الفلسفية** أو ملامح العلوم الحديثة ظهرت فيه **محسنات اللفظ والمعنى**، ومن لم يظهر فى شعره هذا وذاك، ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم، وجاءته العدوى من أساليب الكُتَّاب فى النثر المنمق، وأساليب التحية فى المجالس، وأساليب المعيشة فى القصور.

وامتاز هذا العصر - على العصر الذى تقدمه - بما يصح أن نسميه «**علم الشعر**» تمييزا له من العناية بنظم الشعر نفسه، فالعصر السابق كان عصر سليقة وطبع وخيال، أما هذا العصر فكان عصر علم وعقل وصنعة وتكلف. فقد كان الشعراء المولدون يأتون بالمحسنات البليغة عفوا أو محاكاة للأقدمين أو تصرفا فى الإختراع.

نما الشعر فى هذا العصر وتطور فى ألفاظه ومعانيه، فى أوزانه وقوافيه، فى أغراضه وفنونه. فأما ألفاظه فقد رقّت وسهلت، وظهر فيها أثر الثقافة والحضارة. وأما **المعانى** فكان الشعراء يتخذونها طريقا إلى أغراضهم ومطامحهم، وكانت معانى حضرية صرفة يمتزج فيها العقل بالعاطفة، والخيال بالثقافة وتحول الشعراء بالأفكار والصور القديمة إلى معارض جديدة يزينها الفكر العباسى بألوانه العقلية. وأما **الأغراض** - فقد تعددت عند القوم وكثرت وشملت كل وصف، ودخلت كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان.

١ - الغزل

الغزل من الموضوعات التقليدية والمتوارثة التى تطورت وارتقت فى هذا العصر، ورقت معانيه، وهذبت ألفاظه، ولكنه كان - فى الغالب - صناعة متكلفة، قلما يصدق فى وصف العاطفة وتصوير ميول النفس وإنما كان الشعراء يتغزلون مجاراة وامتدادا للفن الموروث، فهم يصطنعونه تمثلا بالمنهج القديم. وقد وجد فى هذا العصر غزل يتفق مع البيئة المترفة الماجنة، ويصور ما انتهت إليه حياة القوم من الفساد وما كان فى المجتمع من تحلل خلقى أعانت عليه أسباب متعددة، فأطلقوا لأنفسهم العنان وصوروا نوازع غرائزهم لنوعية وتغزلوا بالغلمان. ومع ذلك فقد كانت هناك أسراب من الغزل العفيف الذى يتغنى بلوعة الحب وشقوته ويصور الحنين واللهفة من مثل قول العباس بن الأحنف:

زَيْنَ نساءِ العالمين حَبيبى ... دُعَاءَ مَشُوقٍ بالعراقِ غَريبِ
كتبتُ كتابى ماأقيم حروفَه ... لشدّة إعوالى وطولِ نَحيبى
أَيَا فَوْزُ لو أبصرْتنِى ما عَرِفتنى ... لطولِ نُحولى بعدَكم وشُحوبِى
وأنت من الدنيا نصيبى فإنْ أُمتْ ... فليتَك من حُور الجنانِ نصيبى
أرى البيَن يشكوهُ المحبُّون كلهُّم ... فياربِّ قرّب دارَ كلِّ حبيبِ

ووجد أيضا من يتغزل فى المُطْلَق ومن يبتعد عن الفحش والمعانى الصريحة، ومن يلجأ إلى الرمز والاشارة وقد حرص الشعراء حرصا شديدا على أن يأتوا فى غزلهم بكثير من المعانى الطريفة من مثل قول أبى تمام:

بيضاءَ تَسْرِى فى الظلامِ فَيكْتَسِى ... نُوراً وتَسْرِبُ فى الضِّياءِ فيظلمُ

وقوله:

هى البدرُ يُغنيها تَوَدُّد وجهها ... إلى كل من لاَقَتْ وإن لم تَوَدَّدِ

كما حرصوا على الإتيان بالأوزان السهلة والألفاظ العذبة الرقيقة من مثل قول البحترى:

منًى وصلٌ ومنكَ هجرُ ... وفَىَّ ذُلٌّ وفيكَ كِبْرُ
قد كنتُ حُرًّا وأنتَ عبدُ ... فَصِرْتُ عبدًا وأنتَ حرٌّ
أنتَ نَعِيمِى وأنتَ بُؤْسِى ... وقَدْ يَسُوءُ الّذىَ يسُرّ

٢ - المديح

والمديح من الموضوعات التقليدية الموروثة أيضا - مضى الشعراء يتمسكون فيه بتصوير المثل الخلقية والعربية كالكرم والشجاعة والمروءة، وما تتطلبه الجماعة من عدالة الحكام ورفع الظلم عن المحكومين، وبذلك أكثروا من الحديث عن عدالة الخلفاء، وعن تقواهم، ومدحوا القواد والأمراء مدائح رائعة ومجدوا انتصاراتهم على أعدائهم، واستغلوا أذهانهم فى تجلية المعانى الخلقية المختلفة.

واتخذ الشاعر من مقدمات مدائحه متنفسا له، فبدأها بتصوير أحاسيسه عن الحب، وأضاف إلى ذلك بعض التحليلات لخواطره. وقد جعل بعض الشعراء مقدمات مدائحه تصويرا لمطامحه وآماله فى الحياة، على نحو تصوير أبى تمام لصلابة نفسه أمام عوادى الزمن. يقول:

يومى من الدَّهر مثل الدَّهر مُشْتَهرٌ ... عزمًا وحزمًا وساعى منه كالحقبِ
فأصْغِرِى أَنْ شيبًا لاَحَ بِى حَدَثاً ... وأكبرى أننى فى المهد لم أشبِ
فلا يؤرقك إيماضُ القتير به ... فإن ذاك ابتسامُ الرَّأى فى الأدبِ
لا تُنْكِرِى منهُ تَخْدِيدًا تَجَلَّلَهُ ... فالسيفُ لا يَزْدَرِى أنْ كَانَ ذَا شُطَبِ

كما جعلها البعض الآخر فى وصف الرياض أو الربيع أو غير ذلك.

وضمن الشعراء مدائحهم منثورات من الحكم التى من شأنها زيادة خبرة

سامعيها بالحياة وبالناس أمدهم فى ذلك روافد من مأثورات الفرس والهند وغيرهم.

وظهرت فى المديح بعض العناصر الدينية، واتخذه البعض وسيلة لتمجيد الخلفاء ورفع مكانتهم، والسمو بمنزلتهم ورفعها فوق مصافِ البشر على نحو قول البحترى فى مديح الخليفة المتوكل:

يا ابنَ عَمِّ النبى حَقًّا ويا أَزْ ... كَى قريشٍ نَفْسًا ودِيناً وعِرْضاَ
بِنْتَ بالفَضْل والعُلُوِّ فأَصْبَحْـ ... ـت سماءً وأصبحَ الناسُ أرضاَ
وأرى الفَضْلَ بين عارفةٍ منـ ... ـك تُرَجَّى وعزمة منكَ تُمضىَّ

وكان الشعراء فى مدائحهم للخلفاء يشملون بالمديح كل من يرتبط بهم من أمراء ووزراء وقواد، ويصفون كل منهم بالصفة التى يجب توافرها فيهم، فإذا مدحوا وزيرا مدحوه ببعد النظر والقدرة على تصريف الأمور والحنكة والتجربة ومضاء الرأى. وإذا مدحوا أميرا أو قائدا مدحوه بالشجاعة والبأس وقوة الشكيمة والمقدرة القتالية. وقد كانت بعض مدائح الخلفاء أشبه ما يكون بالوثائق التاريخية، سجل فيها الشعراء كل ما يتصل بالخليفة وعصره وحروبه وانتصاراته.. من مثل قول أبى تمام فى مديحته المشهورة عموريه:

خليفةُ الله جازَى الله سَعْيَكَ عَنْ ... جُرْثومةِ[1] الدِّينِ والإسلامِ والحَسَبِ
بَصُرْت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنَالُ إلاَّ على جِسْرٍ من التَّعَبِ
إن كان بينَ صُرُوفِ الدَّهْرِ منْ رَحِمٍ ... موصولة أو ذمام غير مُنْقَضِبِ[2]
فبينَ ـ أيامك اللاتى نُصِرْتَ بها ... وبين أيامِ بَدْرٍ أَقْرَبَ النَّسَبِ

غير أن المديح فى نهاية العصر داخله كثير من المبالغة، واشتد فيه الإسراف وبعد الشعراء عن القصد الذى هو من مميزات الطبع العربى الخالص، وشغل به الشعراء حتى اتخذوه أداة للكسب فى غير تعفف ولا كرامة ولا حياء.

---

(١) الجرثومة: الأصل.

(٢) منقضب: أى مقطوع.

٣ - الفخر

ومن الموضوعات التقليدية أيضا: الفخر. ولقد ظلت له حيويته القديمة، غير أنه فى هذا العصر - حيث ذابت الجنسيات وامتزجت - أصبح فخرا هادئا لا يصور عصبية ولا قبلية ولا جنسية، وإنما يصور شعورا طاغيا بالخلق الكريم والشيم الرفيعة والاحساس بالقوة، ومغالبة الزمن من مثل قول أبى فراس الحمدانى:

ونحْنُ أُنَاسٌ لا تَوَسُّط عِنْدَنا لنا الصَّدْرُ دُونَ العَالَمِين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالىِ نفوسُنا وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِها المهَرْ

وقد وجد من الشعراء من لا يفاخر بهذه المثل والقيم فحسب، بل يفاخر أيضا بخصالهم وعلمهم وثقافتهم. وفى مجال الفن - فاخر بعض الشعراء بشاعريتهم ومدائحهم التى لم يُقَلْ مثلها، وبأن أحدا لا يستطيع أن يجاريهم فيها. وممن أكثر من نثر هذا الفخر فى مدائحه وفى شعره أبو تمام والمتنبى.

٤ - الرثـاء

ومن أهم أغراض الشعر العباسى: الرثاء. فقد تنافس الشعراء فيه. وفى استحداث معانيه فصوروا الحزن والأسى وأحاسيسها تصويرا رائعا. وتنوعت معانيه نتيجة لمقدرة الشاعر على تحليل خواطره إزاء الموت والحياة. فكان الشاعر فى مرثيته يلائم بين معانى الرثاء من ناحية. وفلسفة الموت، والقيم الروحية الإسلامية، والقضاء والقدر من ناحية أخرى. يوائم بين صفات المرثى ومعانى الرثاء، مصورا أن الموت نهاية كل كائن حى، وأنه يصل إلى كافة البشر، يدركهم فى أى مكان، وبتوقيت معلوم. وقد رثى الشعراء الخلفاء، وأبناء الخلفاء. ورثوا القواد

مراثى تدلع العزيمة فى نفوس الشباب، من مثل قول أبى تمام فى رثاء ابن حميد الطوسى:

وما كنتَ إلاَّ السيفَ لاَقَىَ ضَرِيبةً فقطَّعها ثم انثنىَ فَتَقَطَّعَا

ورثى الشعراء أيضا أبناءهم وزوجاتهم وأمهاتهم.. من مثل رثاء ابن الرومى لابنه:

أَلاَ قَاتَلَ الله المَنَايَا ورَمْيَهَا مِنَ القَوْمِ حبّاتِ القلوبِ علىَ عَمْدِ
تَوَخَّى حمامُ امَوْتِ ،أوسطَ صبْيتى فلله كيف اختار واسطةَ العِقْدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عنِّى فأَضْحَى مَزَارُهُ بعيدًا علىَ قُرْبٍ قريبًا علىَ بُعدِ
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدَها وأخلفت الآمالُ ما كان من وَعْدِ

ومن الموضوعات الجديدة فى هذا المجال.. مراثيهم للمدن والقصور، وقد استطاع الشعراء أن يستنبطوا كثيرا من المعانى الدقيقة والأفكار الطريفة

وأضاف الشعراء إلى مراثيهم بعض أشعارهم الزاهدة التى توضح نفسياتهم ومدى تعمقهم فى الدين والحياة وكما ارتبط الرثاء بالزهد، ارتبط أيضا بالحكمة والتأمل فى الحياة، والحديث عن الدهر وغير ذلك من الأمور.

٥ - الوصف

وكثر فى هذه المرحلة شعر الوصف والتفنن فيه، فوصف الشعراء: الخمر والقيان ومجالس الأنس وآلات الطرب. من مثل قول ابن الرومى:

وقيان كأنّها أُمَّهاتٌ عَاطفاتٌ على بَنِيهاَ حَوَانِ
مُطْفِلاَتٌ وما حَمَلْن جَنينًا مُرْضَعَات ولَسْنَ ذات لُبانِ

كلَّ طِفْلِ يدعى بأسماء شتى بين عُودٍ ومزهر وكـرانِ

ووصفوا أيضا السفينة والنحل والكلب والذئب والديك، والشيب والشباب وأكثروا من وصف الطبيعة - يقول ابن الرومى فى وصف الرياض:

ورياضٌ تَخَايلُ الأرضَ فيها خيلاء الفتاةِ فى الأبرادِ
منـظرٌ معجبٌ تحية أنفٍ ربحُها ربح طِيبِ الأولادِ

ويقول ابن المعتز فى وصف السحاب:

وسـاريـةٌ لا تَمَـلُّ البكـا جَرَى دمعُهَا فى خدودِ الثرىَ
سَرَتْ تقدحُ الصبحَ فى ليلِهَا ببـرقٍ كهنْـديّـة تُنتضَىَ[٣]
فلمّا دَنَتْ جَلْجَلَتْ[٤] فى السمـ ـاءِ رعدًا أجش[٥] كجَرْس الرَّحَا

ووصفوا أيضا السيف والقلم. وتحدثوا عن حياتهم المتحضرة وعن سكنى القصور، ووصفوا الحدائق والبساتين والبرك والأنهار، من مثل وصف البحترى لبركة قصر المتوكل.

ما بالُ دجلة كالْغَيْرَى تُنَافِسُها فى الحُسنِ طَوْراً وأطوارٌ تُباهِيهَا
تنصبُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجِلةً كالخيلِ خارجة من حَبْل مجريهاَ
كـأنما الفِضّـة البَيْضَاء سـائلة من انسبائِك تجرى فى مَجَاريهاَ
فحاجِبُ الشّمسِ أحياناً يُضاحِكُها وريقُ الغَيْثِ أحياناً يُبـاَكيهاَ

وليس هذا فحسب بل وصفوا أيضا حفلات الزفاف، وألوان الطعام كالفطائر والقطائف والخبيصة وغير ذلك، بل إنهم لم يتركوا شيئا مما يتصل بحياتهم إلا وصفوه وتفننوا فيه.

---

(٣) تنتضى انتضى السيف: استله من غمده.

(٤) جلجل السحاب: رعد.

(٥) الأجش: الغليظ الصوت: الجرس: الصوت.

٦ - الزهـــد

إذا كان المجون قد فشا فى جانب من جوانب المجتمع فى ذلك الحين ، فقد كان يقابله الزهد عند كثيرين، فقد مضى غير شاعر ينظم فى مجال الزهد متحدثا عن الموت والثواب والعقاب وإيثار ما يبقى على ما يفنى، والتزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح.

وتحدث الشعراء الزاهدون طويلا عن القناعة بالكفاف والرضا بالمقسوم. واستطاع الزهاد أن ينوعوا تنوعا واسعا فى معانى الزهد، وكل ما يتصل به من الترهيب من النار، والترغيب فى الجنة، والدعوة إلى طاعة الله.

٧ - الرسائل الشعرية

ومن الطرائف التى استحدثها العقل العباسى المتطور فى مجال الشعر: الرسائل الشعرية. وهى رسائل نظمها بعض الشعراء فيما بينهم تفكها أحيانا وتصويرا لبراعتهم ومقدرتهم على الإتيان بالجديد أحيانا أخرى، وضمنوها عواطفهم وأحاسيسهم ومشاعرهم تجاه المرسل إليهم. ولعل هذا الفن - فن المراسلات الشعرية - كان يتصل بفن النقائض الذى وجد وشاع عند فحول الشعراء بالعصر الأموى. جرير والأخطل والفرزدق. حيث كان الشعراء يتراسلون ويبعث كل منهم بنقيضته إلى الآخر فيرد عليها. غير أن هذه الرسائل الشعرية كانت رسائل مودة ومحبة وتقدير، تراسل بها الأصدقاء وغيرهم ولا تتصل بفن الهجاء.

٨ - الشعر التعليمى

وظهرت فنون أخرى من الشعر، لعل أهمها: «**فن الشعر التعليمى**» فن الشعر التعليمى الذى دفع إليه رقى العقل العربى ورقى العلم وتسلطه على حياة الشعر والشعراء، فإذا هم يفكرون فى صوغ بعض العلوم والمعارف شعرا، مما هيأ لظهور **الشعر التعليمى**، وكان من أوائل من اقتحموا بشعرهم ميدان المعرفة «**إبان بن عبد الحميد**» فإنه ترجم كليلة ودمنة شعرا للبرامكة، ونظم أيضا فى التاريخ سيرتى أردشير وأنوشروان، ونظم فى الفقه قصيدة طويلة صور فيها أحكام الصوم والزكاة، ونظم فى نشأة الكون. وفى الشعر التعليمى نظم أبو العتاهية مزدوجة يقال أنها كانت فى أربعة آلاف بيت كلها حكم وأمثال. من مثل قوله:

مَا انْتفَعَ المرءُ بِمثْل عَقْلِهِ وخَيْرُ ذُخْر المَرْء حُسْنُ فِعْلِهِ
حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ القُوتُ ما أَكْثر القُوت لِمَنْ يَمُوتُ

وقد شارك «**المعتزلة**» فى **هذا اللون الجديد من الشعر بحظ وافر يتقدمهم بشر ابن المعتمر** الذى نظم شعرا كثيرا فى النِّحل وأصحابها، وله فى كتاب الحيوان قصيدتان يتحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ودلالتهما على قدرة الله فى خلقه.

ولا شك أن للثقافة المعاصرة دورا كبيرا فى الإنتاج الشعرى، ظهر ذلك فى رقة الألفاظ وعذوبتها وقوة المعانى وغزارتها، فقد تصرف الشعراء ببراعة فى ألفاظهم وصورهم وأخيلتهم، حتى ليمكن القول أنهم طوَّعوا كل طرائق التعبير لتخدم ذوقهم المتحضر المثقف.

وسمة بارزة فى شعراء هذا العصر، وهى أن معظمهم جمع بين الفن والعلم فكانوا

شعراء وأدباء ومؤلفين. فالبحترى الشاعر نراه يؤلف كتابا ضمنه مجموعات من الشعر العربى فى الحماسة، كما فعل أبوتمام من قبل. وعبد الله بن المعتز - الأمير. وخليفة المسلمين ليوم واحد، والشاعر - ألف فى النقد - حيث وضع الشعراء فى طبقات، واستقصى أنواع البديع، وجمع مختارات من الشعر وغير ذلك، إلى جانب كونه من فحول شعراء عصره. والصولى - علاوة على نظمه الشعر وإنشاده، وتحليله، كان مؤلفا بارعا، ألف فى معظم فروع المعرفة.

ولهذه الظاهرة الجديدة قيمتها ودلالتها، فهى تدل على أن الشعر أخذ يفقد مكانته الأدبية قليلا وفطن الشعراء إلى عدم الاكتفاء بنظم الشعر وإنشاده، وشكّو فى إمكان الإكتفاء به، فنراهم يقصدون إلى العناية بشىء آخر طغى، على هذ العصر - وهو العلم.

ولقد كان لضعف الخلافة - فى أواخر عصر الصولى - واشتغال الخلفاء بأنفسهم وخوفهم على مصيرهم، أثر على الحياة الأدبية. فقد أدى ضعف الخلافة إلى ضعف الشعر، فلم ينبغ فيه سوى قلة فرضوا أنفسهم بقوة شاعريتهم، وهكذا اختلف الحال عن ذى قبل.. وكسدت سوق الأدب.

ولعل أسباب هذا الكساد يرجع إلى عدة عوامل:

أولا: أن معظم الخلفاء والأمراء كانوا شعراء ينظمون الشعر فى مجالات متعددة، ويحفظون منه الكثير، ويروونه هم أنفسهم فى بعض المناسبات.

ثانيا: أن اشتغال هؤلاء الخلفاء والأمراء بالشعر ونظمه، وحفظه وروايته، جعلهم لا ينظرون إلى الشعراء تلك النظرة القديمة، التى كانت تجد فيما يسيل على ألسنتهم تخليدا لأمجادهم، وتفخيما لدولتهم وتعظيما لشأنها، وبالتالى لم يكن يجيزون على مدائح الشعراء بالجوائز السنية، والهبات القيمة، كما كان يفعل الخلفاء السابقون.

ثالثا: أن العصر أصبح عصر ثقافة وعلم، يود فيه كل إمرىء موصوف بالأدب أن يعرف كل ما يُعرف من الآداب، والفنون والعلوم والملاهى - فإذا تعلم القوم الشعر وأنشدوه - ومعظمهم فعل ذلك - فكما يتعلم لآن الرجل المثقف العزف على آلة موسيقية، أو هواية التصوير، أو غير ذلك..

ولا عجب أن يكثر الناظمون، وحافظو الشعر ومنشدوه ورواته، فى زمن كهذا، الوزارة فيه والكتابة وصناعة الأدب تكاد تكون فنا واحدا، فمعظم الوزراء والولاة والندماء والجلساء كانوا من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة والتقدير عند الخلفاء.

وفى أواخر العصر، طرأت أمور كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء، وتقليل العطايا والبر إليهم - منها: توزيع العناية بين العلوم الوافدة المستحدثة على الذهن العربى، والشعر الذى كان مستأثرا بجل عناية العرب فى صدر الدولة - ومنها: غلبة المنادمة على الشعر، وترجيح صفة النديم ومكانته على صفة الشاعر ومكانته - إذا تعذر الجمع بين الصفتين - ومنها قلة الإكتراث للمدح حيث كانت المعانى فى معظمها متداولة مكررة، وصورة معروفة مفهومة - ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية بين عصرين: عصر الهيبة والثروة والعطايا والمُلْك الموطَّد وقد ذَهَب.. وعصر الأمراء الذين تقسموا الدولة واستقر كل منهم على إمارة، وتنافسوا فيما بينهم فى اجتذاب الشعراء والتشبه بالخلفاء.

كل ذلك جعل الشعراء ضائعين تائهين بين هنا وهناك، ولعل ذلك هو سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المجيدين فى الربع الأخير من القرن الثالث، والربع الأول من القرن الذى تلاه.

ثانيا: النثر

وفى هذا العصر نما النثر وتنوع وكثرت فنونه، فمن نثر الدواوين الذى يصدر عن الخلفاء والوزراء والأمراء مصرفا لأعمال الدولة، إلى هذا النثر الذى أخذ يتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر، من رغبة ورهبة، وعتاب ورثاء، ومدح وتهنئة، واستعطاف واعتذار إلى غير ذلك من هذه الفنون التى تصور نوازع الأفراد وأهواء نفوسهم، إلى نوع آخر من النثر لا يتناول شئون الدولة، ولا أهواء الأفراد، وإنما يتناول النفس الإنسانية من حيث هى مؤثرة فى الحياة، ومتأثرة بها، فهو يصفها ويبين أخلاقها، وهو يرشدها إلى الخير، ويعظها أن تتورط فى الشر، ويوضح لها سبل الحياة، بما يضرب لها من مثل، ومايُفَصّل بين يديها من حكم.

إلى نوع آخر من النثر، يقصد به كاتبه إلى التفكه، والترفيه عن النفس أو تحقيق اللذة الفنية الخالصة بتناول الموضوعات الأدبية من نقد للشعر أو شرح له وما يتصل بهذا كله مما نجده فى كتب الأدب.. إلى نوع آخر من النثر يقصد به توضيح قيمة شاعر وإظهار مكانته وبراعته، والدفاع عن مذهبه الشعرى.. إلى نوع آخر من النثر اصطنعه العلماء والمؤلفون فى دروسهم وأماليهم وكتبهم العلمية والتعليمية دون ما استعراض لأسلوب أو تقعر فى لغة، إنما يقصد به مؤلفه توصيل المادة العلمية أو التاريخية أو الأدبية إلى عقول القراء مباشرة وبلا أدنى تكلف.

المهم أن نعرف، أن النثر - فى عصر الصولى - أصبح فنا تؤدى فيه جميع العلوم وجميع الأغراض، حتى التى كانت وقفا على الشعر.. فأصبح الناثرون يمدحون ويهجون ويرثون ويعاتبون ويصفون ويؤرخون.. وتغيرت طبيعته، فسهل ولان وأصبح مرنا يستوعب كل ما يصادفه من أمور وعلوم.

ولقد كان نتيجة لتطور النثر الفنى أن تسلط عليه الشعراء، وأخذوا منه، كما كان الكتّاب فى الماضى يسطون على الشعر ويأخذون منه - فنرى ابن الرومى يتفنن فى معانيه، ويطيل فى بسط فكرته وسردها، مقلدا الكتاب، بل ويسرف فى ذلك إسرافا مفرطا، فتطول القصيدة عنده طولاً لم نعهده فى العصور الماضية، كما بسط ألفاظها تبسيطا شديدا، وبذلك مَحَا ما كان بين النثر والشعر من فروق[٦].

وخصيصة بارزة فى أسلوب أدباء العصر وهى **تحليل المعانى والأفكار، وكثرة الاستطراد والتنقل من موضوع إلى موضوع** - زيادة فى الإمتاع والتثقيف - ثم الرجوع إلى أصل الموضوع الذى يتناوله الأديب.

وفى هذا العصر وضح **تنوّع الكتابة** لكثرة العوم والفنون من جهة، ولتباين مذاهب كتاب العصر وتخصصاتهم. من ناحية أخرى. فأصبح لكل كاتب من الكتاب أسلوب خاص يتميز به عن غيره تبعا لثقافته وعلمه.. وأصبح فى المتكلمين كتاب وفى الفقهاء كتاب.. وللأدب كتاب.. كما كان للديوان كتاب.

ولقد أخذ كتاب الدواوين أنفسهم بثقافة واسعة، فنراهم يسيرون على الطريق الذى وضعه لهم **عبد الحميد الكاتب**. غير أنهم - فى عصر الصولى - لم يكتفوا بذلك، بل وسعوا ثقافتهم فشملت العلوم الفلسفية، وأضافوا إلى ثقافتهم العربية والفارسية - الثقافات الأخرى الداخلة، وعمقوا أفكارهم ورتبوا معانيهم ، وانعكس كل ذلك على أسلوبهم وطريقتهم فى التعبير - حيث كان الكتاب يبالغون فى تنميق كتاباتهم فأحدثوا **مذهب التصنيع**[٧] كما استغل كتاب الدواوين مهارتهم العقلية فى تلوين كتاباتهم بالعديد من الإستعارات والكنايات.. وأخذوا يحتالون فى كتاباتهم احتيالات كثيرة، ويضمنوها صورا طريفة تعين على إبراز الأفكار التى

---

(٦) الفن ومذاهبه فى الشعر - دكتور شوقى ضيف - ترجمة ابن الرومى ص ٢٠٠ - ٢١٤.

(٧) الفن ومذاهبه فى النثر - دكتور شوقى ضيف ص ١٩٩.

يريد الكاتبون تأديتها. وممن اشتهر فى هذا الجانب مجموعة من الكتاب على رأسهم أسرة الصوليين التركية، وأسرة البرامكة الفارسية[٨].

ولا شك أن الذى ساعد على اجتهاد الكتاب فى صقل أساليبهم وتوسيع ثقافتهم ومداركهم – أن الكتابة كانت الوسيلة إلى الوصول إلى أرفع مناصب الدولة وأرقاها، خاصة وأن الخلفاء كانوا ينتخبون من بين هؤلاء الكتاب وزراء هم وكتّابهم الخصوصيين وندماءهم ورؤساء الأعمال فى دوينهم.

ولقد أولى الخلفاء العباسيون كتابهم عناية كبيرة، وتخيروا منهم أبرعهم خطاً وأتقنهم كتابة وتنميقا، وأروعهم أسلوبا، وأقدرهم على استخدام الاستعارات والتشبيهات والكنايات. ووصل منهم كتاب كثيرون إلى مراتب عليا فى الدولة منهم **أبو العباس بن ثوابة** المتوفى سنة ٢٧٧ هجرية[٩] وأخوه **جعفر بن محمد بن ثوابة** المتوفى سنة ٢٨٤ هـ الذى تولى ديوان الرسائل فى بغداد حتى تسلمه منهم **أبو اسحق الصابى** سنة ٣٤٩ هـ. وكانت هذه الأسرة من أبرع الأسر التى تولت الكتابة فى الدواوين، ولعبت دورا مهما فى استخدام أساليب الكتابة الديوانية خاصة السجع. ومنهم أيضا أبو بكر الصولى، الذى كان من أبرع الكتاب فى العصر وتولى الكتابة ردحا طويلا ثم أصبح بعد ذلك كاتبا خاصا للخليفة الراضى بالله، الذى كان لا يقرأ إلا ما كتب بخطه.[١٠]

وأهم ما يميز الكتابة الديوانية: **السمة الدينية** – فنرى الكتاب يميلون إلى استعمال ألفاظ القرآن الكريم، ومحاكاة أساليبه، و قتباس آياته، والاستشهاد بها فى ثنايا كتاباتهم لتقوية المعنى وتوضيحه، وتوسعوا أيضا فى إدخال صفات التعظيم ذات

---

(٨) الفن ومذاهبه فى النثر – دكتور شوقى ضيف ص ١٩٩

(٩) معجم الأدباء ١٤٤/٤.

(١٠) أخبار الراضى بالله للصولى ص ١٨٣.

الطابع الدينى على أسماء الخلفاء صونا لأعلامهم، وحجبا عن إمتهانها على ألسنة الناس، فاتخذوا لهم صفات - لا ألقابا كما يقول الصولى[١١] - يُعرفون بها فوصفوهم بالمعتمد على الله، والمعتضد بالله والمكتفى بالله، والقاهر بالله، والراضى بالله إلى آخر هذه الصفات.

وفى هذا العصر وضُعت الكتب التى تخدم الكتاب وتثقفهم وتعينهم على أداء حرفتهم فوضع ابن قتيبة كتاب «**أدب الكاتب**» ووضع الصولى كتاب «**أدب الكتّاب**» كما وضعت كتب عدة تمد الكتاب بالثقافت العامة المتنوعة.. لغوية كانت أو تاريخية، أدبية أو فلسفية.. من مثل الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالى للقالى، وغيرهم.. فاجتمعت الثقافة الواسعة مع ذوق العصر لكى ينهضا سويا بالنثر، وليعملا على تجويد الكتابة ورفع شأنها.

ثالثا: النقد الأدبى

وارتقت حاسة النقد الأدبى نتيجة لارتقاء حياة القوم الاجتماعية والعلمية والثقافية، فقد حدث تغيير واسع فى عقلية القوم وتطورت أذواقهم وأحكامهم وأخذوا فى وضع المبادىء والأصول والمقاييس التى يمكن بها أن يقيسوا جودة الكلام ورداءته وتعاون الأدباء مع اللغويين والمتكلمين فى وضع هذه المبادىء والأصول.. فتطور النقد بتأثير ذلك كله تطورا كبيرا.

وفى هذا العصر وضح أن النقد لم يعد يتقيد بميل الناقد وذوقه ومزاجه فحسب، ولم يخضع لتحليل الصياغة والأعاريض واللغة فقط.. كما كان الشأن من قبل - بل ظهر فيه أيضا أثر الأدباء، الذين كان لهم الفضل فى تحليل الشعر المحدث، وإبراز

(١١) أخبار الراضى بالله ص ٣.

جمال عناصره، وإظهار مواطن القوة فيه، والوصول إلى أكثر خصائصه وأدق أسراره فاتسع أفق النقد وأصبح رحب الجوانب يعتمد على الذوق الأدبى السليم ويأتنس بما دخل على الفكر والذوق العربى من علم وثقافة. وإذا كان النقاد القدماء، قد فطنوا إلى عناصر الشعر القديم وخصائصه، فإن نقاد عصر الصولى قد وقفوا وقوفا طيبا على العناصر الحديثة فى الأدب والتى ظهرت فى شعر المحدثين.

ومنذ أحدث الشعراء المحدثون تجديدهم، انقسم النقاد إزاء هذا التجديد إلى طائفتين:

١ - طائفة تحتذى القديم ولا تقبل التجديد إلا بمقدار وبشرط عدم الخروج على عمود الشعر القديم المتوارث، فهى تؤثر القديم لقدمه ولأصالته، وفى نفس الوقت تتحامل على الشعر المحدث.

٢ - وطائفة مالت إلى انتجديد وقبلته على أنه من حتميات التطور والتجديد، ونتيجة لما دخل على الذوق العربى من ثقافات متنوعة، وارتضت بالشعر المحدث دون مساس بالشعر القديم، بل مزجت بين المذهبين، ورفض أعضاؤها الجمود وحاربوه، وسايروا التطور، فإذا كانت حياة الإنسان تتطور وتتحضر فلابد للغته أن تتطور وتتحضر أيضا، ولابد أن ينعكس ذلك كله على تعبيره الوجدانى.

قبلت الطائفة الأخيرة شعر المحدثين، وأخضعته لمعايير الشعر المتفق عليها فاشترطوا فيه اكتمال المثل العليا التى تواضعوا عليها، جزالة الألفاظ ومتانتها وتخير الكلمات، وأن يشتمل أساسا على روعة التعليل وسمو التخييل، ودقة الطباق، وجمال الجناس، وسحر الإستعارة والكناية، وبلاغة التقسيم.. وألا يتعمد الشاعر التعقيد فى العبارة أو مخالفة القياس، أو الجنوح نحو الشاذ أو الغريب.. وفوق ذلك أن يسلك الشاعر سبيلا معينا مستويا فى استعاراته وتشبيهاته، فلا

يسرف فى الصنعة أو يغرب فى الخيال، حتى لا يتعرض للركاكة والضعف. وأن يكون الشاعر مقتدرا على لغته، متمثلا التراث العربى فى كل صوره وعصوره، لا يجد مشقة فى الأوزان ولا فى اختيار القوافى، وأن يكون مستوفيا لشرائط المديح والرثاء من ناحية إيراد المعانى الضخمة، والمثل العليا فى الممدوحين والمرثيين على السواء.. كل ذلك مع الإضافات التى تتمشى مع تجديدات العصر من المعانى والصور والألفاظ.

وظهر التجديد - الذى قبلته هذه الطائفة أكثر ما ظهر - فى الزخرف والتنميق وقد وجدوا له أصولا ونماذج فى الشعر القديم، جاءت عفوا وسليقة وطبعا، وكان من نتجته أن أصبح الشعر فنا يسير فيه الشاعر وراء جمال اللفظ ورقته، وجمال المعنى وعذوبته،وجمال التركيب ومتانته، وصارت الألفاظ تبدل، والعبارات تغير، ليحدث اللفظ طربا فى السمع، وليحدث المعنى نشوة فى الروح.

وهكذا تناول التجديد فى الشعر كل ما يتصل بالشعر.. أغراضه، وألفاظه ومعانيه، وصوره وأخيلته، وتبع التجديد فى الشعر - التجديد فى أذواق القوم، والتجديد فى تقييم العمل الفنى، وشمل التجديد فى انتقد ظواهره وأشكاله وجوهره وأصبح النقد يقوم على الأسس الفنية المتوارثة، ويقوم أيضا على الثقافة وعلى كل ما دخل الذهن العربى من المعارف الأجنبية.

ومن خلال كتب الصولى فى الشعر والشعراء، ومن خلال كتب النقد القديمة، يستطيع الباحث أن يقول: إن النقد الأدبى - فى هذا العصر - قام أساسا على الموازنة والمقارنة. فقد أخذ النقاد يوازنون ويقارنون - لا بين الشعراء المحدثين ومن سبقوهم فحسب، بل أيضا بين الشعراء المحدثين أنفسهم، فقارنو' بين معانيهم وألفاظهم وصورهم وأخيلتهم، وأشاروا إلى مواطن الجمال والقبح، وأسبقية اختراع المعنى، وتوضيح استراقات الشعراء، وإرجاع المعانى إلى أصحابها، وتحديد التابع

والمتبوع، وتقييم شعر المتنافسين حول معنى واحد. وتوضيح من منهما أحق بالمعنى وتحدثوا أيضا عن إئتلاف اللفظ والمعنى.

وأيضا قسموا الشعراء إلى طبقات حسب جودتهم الفنية، وقسموهم إلى مذاهب فنية من حيث الطبع والصنعة، وقسموهم إلى شعراء مجددين، وشعراء مقلدين أو تقليديين. واتخذوا من أبى تمام رمزا لشعراء الصنعة المجددين، ومن البحترى رمز لشعراء الطبع التقليديين، وأقاموا بين منهجيهما المتنافرين مقارنات واسعة، ودافع كل منهم عن المنهج الذى يرتضيه، والشاعر الذى يعبر عن فلسفته، فخرج للناس العديد من الكتب النقدية فى الموازنة وفى المحاسن والمساوىء وفى السرقات.. من هذه الكتب:

الشعر والشعراء لإبن قتيبة (٢٧٦هـ) وقواعد الشعر لثعلب (٢٩١هـ) ومحاسن شعر أبى تمام ومساويه، وطبقات الشعراء لإبن المعتز(٢٩٦هـ)، وأخبار أبى تمام، وأخبار البحترى للصولى (٣٣٦هـ). وهى كتب يتضح منها تقدم النقد، وسريان بوادر الروح العلمية المتجهة إلى التنظيم والتجديد. كما شهد العصر أيضا صراعا عنيفا بين الأدباء والنقاد، اتضحت آثاره فيما يتصل بالبلاغة، وكان من نتائجه كتاب البديع لابن المعتز.

وفى نهاية عصر الصولى فى القرن الرابع الهجرى - بلغ النقد الأدبى أقصى مداه، وكثرت فيه المؤلفات ومن بينها أشهر ما عرفه تاريخ النقد العربى مثل: نقد الشعر ونقد النثر لقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) وعيار الشعر لإبن طباطبا (٣٤٥هـ)، الموازنة للآمدى (٣٧١هـ). والوساطة للجرجانى (٣٩٢هـ) وغيرهم. وهى كتب تمتاز عن سوابقها بالصبغة العلمية فى تحديد القواعد والضوابط ومحاولتها استيعاب عناصر النص الأدبى.